الدرس التاسع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

قال الإمام الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى في كتابه المعنون بـ«عمدة الأحكام» :

كتاب الصلاة

باب القراءة في الصلاة

١٠٤ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
(لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ) .

قال المصنف الإمام عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى : ((باب القراءة في الصلاة)) ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان ما يتعلق بالقراءة في الصلاة ، سواء الفاتحة التي هي ركن من أركان الصلاة ، أو ما يُقرأ بعدها مما تيسر من كتاب الله تبارك وتعالى ، وأيضاً ما يتعلق بالجمهور بالقراءة في الصلاة الجهرية والإسرار بها في الصلاة السرية ، وأيضاً قدر ما يُقرأ في الصلاة ، إلى غير ذلك من الأحكام المتعلقة بالقراءة في الصلاة مما عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيانه .

وبدأ رحمه الله تعالى هذه الترجمة بحديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ)) ؛ وهذا الحديث بدأ به رحمه الله تعالى لأنه يتعلق بقراءة الفاتحة ، وقراءتها ركنٌ في الصلاة بل ركنٌ في كل ركعة من ركعات الصلاة الجهرية والسرية الفريضة والنافلة .

والحديث عام في الإمام والمأموم والمنفرد ، إلا أن المأموم تسقط عنه إذا أدرك الإمام راکعاً ، إذا أدرك الإمام راکعاً وركع فإنها تسقط عنه في هذه الحالة كما يدل لذلك حديث أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه .

وهذا الحديث العظيم - حديث عبادة - نصٌ صريح في أن قراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة لا تسقط لا عمدًا ولا سهوًا ولا جهلاً ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لَا صَلَاةَ لِمَنْ

لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ)) ، فهي لا تسقط إلا في حالة عدم القدرة على قراءة الفاتحة ، فمن لا يقدر على قراءتها فإنه يُعذر حتى يقدر على قراءتها وإلا فإنها لا تسقط بحال .

والنفي في قوله ((لا صلاة)) ليس نفيًا للكمال وإنما نفيًا للصلاة الشرعية ، فلا صلاة : أي لا صلاة شرعية مقبولة إلا بفاتحة الكتاب ، ومن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فلا صلاة له ، وقد مر معنا في حديث المسيء صلواته لما قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ)) ثم قال الرجل « وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسِنُ غَيْرُهُ فَعَلَّمَنِي » ، فعلمه النبي صلى الله عليه وسلم وكان مما علمه أن قال : ((إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ)) ، وعرفنا أنه جاء في رواية صحيحة لهذا الحديث في سنن أبي داود وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ثُمَّ اقْرَأْ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَمِمَّا شَاءَ اللَّهُ)) ، وفي رواية ((بِمَا شِئْتَ)) أي مما تيسر من القرآن . وحديث المسيء صلواته مر أيضًا بالإشارة إلى دلالة على ركنية قراءة الفاتحة . وفاتحة الكتاب هي أفضل سور القرآن وأجلها على الإطلاق ، وقد جاء في الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال صلوات الله وسلامه عليه قال لأبي سعيد بن المعلى والحديث في صحيح البخاري «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ» ، قال فأخذ بيدي ولما أراد أن يخرج قلت : « يا رسول الله ألم تقل لأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ » قال : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ { هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ)) . فالشاهد أن الفاتحة هي أعظم سورة في كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان جالسًا وعنده جبريل فسمع جبريل نقيضًا من السماء -صوت من السماء- فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط قبل اليوم ، ثم نزل من ذلك الباب ملك قال : نزل اليوم لم ينزل قط قبل اليوم ، ثم جاء وسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ((أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ)) .

وهذه السورة سميت «فاتحة الكتاب» لأنها جاءت فاتحةً له ، وسميت «أم القرآن» لأنها حوت إجمالاً ما حواه القرآن تفصيلاً ، وهي سورة عظيمة مليئة بالدروس والهدايات والعبر ، وجمعت أنواع التوحيد وأصول الإيمان وقواعد الدين والرد على المبطلين وأقسام الناس ، إلى غير ذلك من العلوم الكثيرة التي حوتها هذه السورة المباركة العظيمة . والإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فصل

فيما يتعلق بدروسها والعبر المستفادة منها في كثير من كتبه ولاسيما في كتابه «مدارج السالكين» .

وهذا الحديث -حديث عبادة- من الدلائل على عِظَم هذه السورة ، فحُصِّت من بين سور القرآن بفرضية قراءتها على كل مسلم في اليوم واللييلة سبع عشرة مرة ، بعدد الصلوات المكتوبة . والحديث عامٌ كما قدمت وعلى عموميه وشموله للإمام والمنفرد والمأموم ، وفي وجوب القراءة على المأموم خلاف بين أهل العلم ؛ منهم من يُسقطها مطلقًا ، يسقط قراءة الفاتحة ويقول تكفي قراءة الإمام ، ومنهم من يوجبها مطلقًا ، ومنهم من يفرِّق بين الجهرية والسرية فيجعلها واجبة في السرية دون الجهرية ، لكن الصحيح والله تعالى أعلم من أقوال أهل العلم : أنها تجب على المصلي سواء كان إمامًا أو منفردًا أو مأمومًا ، سواء كانت الصلاة جهرية أو سرية ، وسواء كانت الصلاة فريضة أو نافلة ، وسواء سمع المأموم فيها قراءة الإمام أو لم يسمع ، في أصح أقوال أهل العلم في هذه المسألة لعموم هذا الحديث الذي بين أيدينا حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه ؛ فهو حديث عام لكل هذه الأحوال ((لا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ)) فهو عام شامل لكل هذه الأحوال .

ومما يدل لشمول هذا الحديث لكل الأحوال ما جاء في سنن أبي داود وغيره عَنْ نَافِعِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ ، قَالَ نَافِعٌ : «أَبْطَأَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، فَأَقَامَ أَبُو نُعَيْمٍ الْمُؤَذِّنُ الصَّلَاةَ فَصَلَّى أَبُو نُعَيْمٍ بِالنَّاسِ ، وَأَقْبَلَ عِبَادَةُ وَأَنَا مَعَهُ حَتَّى صَفَقْنَا خَلْفَ أَبِي نُعَيْمٍ ، وَأَبُو نُعَيْمٍ يَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ -صلاة جهرية- فَجَعَلَ عِبَادَةُ يَقْرَأُ أُمَّ الْقُرْآنِ فَلَمَّا انصَرَفَ، قُلْتُ لِعِبَادَةَ: سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ بِأَمِّ الْقُرْآنِ وَأَبُو نُعَيْمٍ يَجْهَرُ!! ، قَالَ: أَجَلٌ ؛ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ الصَّلَوَاتِ الَّتِي يَجْهَرُ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ قَالَ: فَالْتَبَسْتُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ فَلَمَّا انصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ وَقَالَ: ((هَلْ تَقْرَءُونَ إِذَا جَهَرْتُمْ بِالْقِرَاءَةِ؟)) ، فَقَالَ بَعْضُنَا: إِنَّا نَصْنَعُ ذَلِكَ، قَالَ: ((فَلا ، وَأَنَا أَقُولُ: مَا لِي يُنَازِعُنِي الْقُرْآنُ، فَلا تَقْرَءُوا بِشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ إِذَا جَهَرْتُمْ إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ)) . فهذا عبادة رضي الله عنه راوي الحديث قرأ بها خلف الإمام لأنه فهم من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يقرأ بها خلف الإمام والإمام يجهر بالقراءة ، وهو واضح في قوله عليه الصلاة والسلام ((إِلَّا بِأَمِّ الْقُرْآنِ)) . وهذا مما يوضح أن الصحيح من أقوال أهل العلم في هذه المسألة أنها تشمل حتى المأموم ، وتشمله أيضًا حتى في الصلاة الجهرية .

قال رحمه الله تعالى :

١٠٥ - عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَسُورَتَيْنِ ؛ يُطَوِّلُ فِي الْأُولَى وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ ، يُسْمِعُ الْآيَةَ أحياناً ، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْعَصْرِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَسُورَتَيْنِ ؛ يُطَوِّلُ فِي الْأُولَى وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ . وَكَانَ يُطَوِّلُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ ، وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ بِأَمِّ الْكِتَابِ)).

قال : وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنْ صَلَاةِ الظُّهْرِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَسُورَتَيْنِ ؛ يُطَوِّلُ فِي الْأُولَى وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ ، يُسْمِعُ الْآيَةَ أحياناً)) ؛ هذا ما كان يقرأ به عليه الصلاة والسلام في صلاة الظهر ، والغالب في قراءته عليه الصلاة والسلام في صلاة الظهر أن يقرأ بنحو الثلاثين آية ، والعصر أقل من ذلك ، فجاء في هذا الحديث أنه يقرأ بالسورتين ؛ يعني في كل ركعة سورة وفي الركعة الأولى تكون السورة أطول ، وهذا فعلة عليه الصلاة والسلام أنه يطوّل في الركعة الأولى أطول من الثانية ، لكن قال العلماء : لو أنه حصل أن الإمام أطال شيئاً ما في الثانية أكثر من الأولى لا حرج عليه في ذلك إن حصل أحياناً ، ومما يستأنس به لذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة بـ {سَبِّحْ} و {هل أتاك} ، و {هل أتاك} أطول شيئاً يسيراً من {سَبِّحْ} ، لكن الأصل أن يقرأ في الركعة الأولى أطول من الركعة الثانية ، لكن لو أطال في الثانية شيئاً قليلاً فلا حرج في ذلك إن شاء الله ، وإن كان الذي ينبغي والذي يواظب عليه أن يطول في الأولى أكثر من الثانية .

وقوله «بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ» هذا يدل على وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من كل صلاة .

وقوله «وَسُورَتَيْنِ» هذا يستفاد منه : استحباب قراءة سورة كاملة في الركعة .

وقوله «يُطَوِّلُ فِي الْأُولَى وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ» قيل أن الحكمة في التطويل في الأولى : أن الناس في الركعة الأولى أنشط منهم في الثانية ، فتكون الأولى أطول لذلك ، وقيل غير ذلك في تعليل هذا التطويل .

وقوله «يُسْمَعُ الْآيَةَ أَحْيَانًا» لأن صلاة الظهر سرية والقراءة فيها سرًا ، لكنه عليه الصلاة والسلام كان يُسْمَعُ الْآيَةَ أَحْيَانًا ، وقيل من الحكمة في ذلك : أن يُعْلَمَ أَنَّهُ يَقْرَأُ ، أن فيه قراءة ، فكان أحيانا يُسْمَعُهُمُ الْآيَةَ يَعْنِي يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ بَعْضِ الْآيَةِ يُسْمَعُهُمُ الْآيَةَ أَحْيَانًا .

((وَكَانَ يَقْرَأُ فِي الْعَصْرِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَسُورَتَيْنِ ، يُطَوِّلُ فِي الْأُولَى وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ)) وهذا أيضا يستفاد منه ما أشرت إليه استحباب قراءة سورة بعد الفاتحة في كل ركعة يعني بعد الأولى وبعد الثانية ، في كل ركعة أي من الركعتين الأوليين يطوّل في الأولى ويقصر في الثانية .

((وَكَانَ يُطَوِّلُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، وَيُقَصِّرُ فِي الثَّانِيَةِ)) ؛ وكان من هديه عليه الصلاة والسلام أن يقرأ في صلاة الفجر من طوال المفصل مثل ق والواقعة والطور والذاريات والرحمن والقمر ، فكان من هديه أن يقرأ في الفجر من طوال المفصل ، والظهر والعصر من وسط المفصل لكن الظهر تكون القراءة فيه أطول من القراءة في العصر ، فالظهر يكون بنحو سورة تبارك ، والعصر بنحو البروج والانشقاق ونحو هذه السور ، والمغرب كان يقرأ فيه في الغالب من قصار المفصل ، والعشاء يقرأ فيه بنحو والشمس وضحاها والليل إذا يغشى وما يقارب ذلك . لكن لو طوّل فيما يقصّر فيه مثل طول في المغرب أو قصّر مثلا في القراءة الفجر في بعض الأحيان ولاسيما للأمور العارضة فلا حرج في ذلك لثبوت ما يدل لذلك من هدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه . ففي الفجر مثلا ثبت أنه قرأ في الركعتين الزلزلة ، سورة الزلزلة قرأها في الركعة الأولى وقرأها أيضا في الثانية ، وثبت أنه قرأ في المغرب بالمرسلات بل أيضا ثبت أنه قرأ فيها بالأعراف ، لكن هديه في الغالب في هذه الصلوات ما أشرت إليه وهو الذي ذكره أهل العلم رحمهم الله تعالى .

وقوله ((وَفِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ بِأَمِّ الْكِتَابِ)) في الركعتين الأخريين أي من صلاة الظهر كذلك العصر يقرأ بأَمِّ الْقُرْآنِ ؛ أي لا يقرأ معها شيء ، لكن صحح الزيادة في بعض الأحيان بمقدار الفاتحة أو ما يقارب الفاتحة ، وهذا ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أبي سعيد ؛ فأحيانا يقرأ في الركعتين الأخيرتين بعد الفاتحة بما يقارب سورة الفاتحة أو قريبا من ذلك .

قال رحمه الله تعالى :

١٠٦ - عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ.

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ» وجاء في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٦) أَمَّ عِنْدَهُمْ خَزَائِنَ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ (٣٧) قال : «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ» رضي الله عنه . وهذا فيه هيبه القرآن وقوة وقعه على القلوب وتأثيره فيها لمن وفقه الله سبحانه وتعالى لحسن الاستماع والإنصات لكلام الله سبحانه وتعالى .

وهذا الحديث مما يدل عليه أنه لا بأس بإطالة ما هو الأولى تقصيره ، الأولى في المغرب تقصيرها وأن يقرأ فيها بقصار المفصل هذا هو الأولى ، لكن التطويل فيها في بعض الأحيان دلت عليه السنة ، قرأ فيها الطور وقرأ فيها الرسائل وقرأ فيها بما هو أطول من ذلك الأعراف ؛ فيفيد هذا الحديث أنه لا بأس بإطالة ما هو الأولى تقصيره في بعض الأحيان ، وأيضا العكس تقصير ما الأولى تطويله مثل الفجر أيضا دلت السنة على ذلك مثل ما أشرت قبل قليل من قراءته عليه الصلاة والسلام لسورة الزلزلة في ركعتي الفجر .

قال رحمه الله تعالى :

١٠٧ - عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي سَفَرٍ فَصَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ؛ فَقَرَأَ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ بِالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ)) .

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي سَفَرٍ فَصَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ؛ فَقَرَأَ فِي إِحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ بِالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ)) ؛ الغالب في قراءته في العشاء بما هو أطول من ذلك مثل : والليل والشمس وضحاها ولا أقسم بهذا البلد ،

لكنه في هذا الحديث قال كنا في سفر ، وعارض السفر يكون فيه التخفيف ، ودلت أيضا السنة على ذلك .

وقوله في هذا الحديث ((فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ)) فيه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ بهذا الصوت الحسن الطيب حتى قال البراء رضي الله عنه ((فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ)) فهذا يبين لنا أن صلاة السفر عندما يقرأ الغالب على الناس وهذا ملاحظ أنهم يهدون القراءة هذا ، بينما سنته عليه الصلاة والسلام التمهّل والترتيل ، بينما الغالب في كثير من الناس وهذا يُرى في المساجد التي على الطريق لا بأس نعم أن يقرأ بسور قصيرة لكن لا يهد القراءة هذا ، يتأني ويترسّل ويرتل كما كان عليه الصلاة والسلام . قال ((فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا أَوْ قِرَاءَةً مِنْهُ)).

ومما يستفاد من هذا الحديث أيضا : استحباب تحسين الصوت بالقرآن وأن يزين ((زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)) ، يجتهد الإنسان لكن من غير تكلف وتصنع وإنما على السجية لكن يجتهد في أن يحسّن صوته بالقرآن .

قال رحمه الله تعالى :

١٠٨ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيُخْتِمُ بِهِ «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ صَنَعَ ذَلِكَ؟ فَسَأَلُوهُ. فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجِبُّهُ)).

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ)) السرية : القطعة من الجيش ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا اقتطع قطعة من الجيش وبعثهم يؤمّر عليهم أميرًا ، وعادة الأمير هو الذي يؤم بهم وهو الذي يُسأل ويكون أعلمهم . ف ((بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ ، فَيُخْتِمُ

ب «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((كَأَنَّهُمْ استشكلوا هذا الأمر ، فذكروا ذلك للرسول عليه الصلاة والسلام .

((فَقَالَ: سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ صَنَعَ ذَلِكَ؟)) ما السبب ؟ ما الذي حمّله على ذلك ؟
((فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ)) ومعنى قوله لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ : أي لأنها سورة أخلصت لبيان أو ذكر صفة الرحمن ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾ ، ليس فيها إلا ذلك ؛ أخلصت لبيان وذكر صفة الرحمن .

قال ((لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا)) أي لكونها أخلصت لهذا الأمر .
وقد دل الدليل على أن هذه السورة العظيمة تعدل ثلث القرآن ، ومن أقوى ما ذكر أهل العلم في تعليل ذلك لأنها أخلصت لصفات الرب سبحانه . وهذا فيه دليل على أن سور القرآن متفاضلة ، وهذا التفاضل عائد إلى المعاني التي حوتها ألفاظ هذه السور ، فما كانت ألفاظه مشتملة على التوحيد والتعظيم والذكر لصفات الرب سبحانه وتعالى فإنها أعظم وأفضل من غيرها ، قال ((لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا)) .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّه)) ؛ وهذا يستفاد منه فائدة عظيمة ؛ أن حب آيات الصفات والعناية بها جمعاً وقراءةً وتفقهاً وتبصراً ومعرفةً بمعانيها وما دلت عليه من أسماء الله وصفاته وعظمته أمرٌ يحببه الله ويحب من يقوم به ، قال ((أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّه)) ، فهذا يدل على أن هذا من الأمور العظيمة الموجبة لنيل محبة الله سبحانه وتعالى ، ومن الطرائق التي إذا اعتنى بها العبد فإنه ينال بها محبة الله سبحانه وتعالى له . قال ((أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّه)) .

ومما يفيد هذا الحديث : أنه لو قرأ في الركعة الواحدة سورتين لا حرج ، وإن كان الأصل أن يقرأ في كل ركعة سورة ، لكن لو قرأ لا حرج لدلالة هذا الحديث على ذلك ، أنه لا بأس بقراءة السورتين في الركعة .

قال رحمه الله تعالى :

١٠٩ - عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذٍ : ((فَلَوْلَا صَلَّيْتُ بِسَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ؛ فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ)).

ثم ختم هذه الترجمة بهذا الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذٍ : ((فَلَوْلَا صَلَّيْتُ)) أي صلاة العشاء ؛ لأن الواقعة تتعلق بصلاة العشاء . قال : ((لَوْلَا صَلَّيْتُ بِسَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ؛ فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ)) وهذا الحديث يستفاد منه القدر الذي يُقرأ في صلاة العشاء أنه بقدر نحو هذه السور ؛ سَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وما كان في نحو هذه السور في المقدار . قال : ((فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الْكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الْحَاجَةِ)) ومن هديه صلى الله عليه وسلم مراعاة أحوال الناس من ضعيفٍ أو كبيرٍ أو ذا حاجة .

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ تَرْكِ الْجَهْرِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٠ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانُوا يَفْتَتِحُونَ الصَّلَاةَ بِ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»)). وفي رواية: ((صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)).

وَلِمُسْلِمٍ : ((صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ؛ فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِ «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ، لَا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةِ وَلَا آخِرَهَا)).

ثم عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة ((بَابُ تَرْكِ الْجَهْرِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) وهذا فيما يتعلق بالصلاة الجهرية ، أما الصلاة السرية فالأمر واضح لا يُجهر بها ولا بالفاتحة ولا بالسورة

التي تُقرأ ، إلا أنه كان كما تقدم يُسمعهم الآية أحيانا . فقوله ((بَابُ تَرْكِ الْجَهْرِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) أي في الصلاة الجهرية ؛ فكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأ يبدأ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ويسمى سرًا ، ويجهر أول ما يُسمع منه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ولم يأت ما يدل على مشروعية الجهر بالبسملة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « ولم يثبت حديثٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم بالجهر بها من وجهٍ صحيحٍ » . فقوله ((بَابُ تَرْكِ الْجَهْرِ)) يعني يؤتى بها بالبسملة لكن لا يُجهر بها في الصلاة الجهرية ، وإنما الجهر يكون في السورة التي هي بدءٌ من قوله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه : ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما كَانُوا يَفْتَتِحُونَ الصَّلَاةَ بِ « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »)) يفتتحون الصلاة أي الجهرية فيما يجهرون به بالحمد لله رب العالمين ، أما بالبسملة فلم يكن عليه الصلاة والسلام يجهر بها .

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ أَنَسٌ : ((صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) ؛ وهذا دليل على أن البسملة ليست آية من الفاتحة ، لأنها لو كانت آية من الفاتحة لكان حكمها حكم الفاتحة يُجهر بها مثل ما يُجهر بالفاتحة ، فهذا من الأدلة الواضحة على أن البسملة ليست آيةً من الفاتحة .

قال : ((صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)) ومعنى « يقرأ » يجهر ، وإلا سرًا فإنه يؤتى بها .

وَلِمُسْلِمٍ : ((صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِ « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ، لَا يَذْكُرُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا آخِرِهَا)) ففيه ترك الجهر بالبسملة وأن هذا هو هدي النبي عليه الصلاة والسلام وهدي الخلفاء من بعده ، وصح عنه في الحديث أنه قال : ((عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ)) ، وكما قدمت نقلا عن شيخ الإسلام لم يثبت حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهر بها من وجه صحيح .

ونكتفي بهذا القدر . سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.